UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190758

UNIVERSAL
LIBRARY

معروف ارناؤوط

فردوس المعري

صفحات أدبية حياتي
تحليل مؤلفات أبي العلاء المعري
الشاعر الكبير، وسياحته في اليونان
وروايته الفريدة، وهو على نسق
كوميديا الحجيم الخالدة الشاعر الايطالي دانتي

يباع بإدارة : --

المكتبة الاهلية في بيروت

١٣٣٣ هـ بالمطبعة العصرية ١٩١٥ م

سبب وضع الكتاب

في العام الماضي اجتمعت في مدينة حمص بالآنسة جان لوسي داريو معلمة الادبيات العربية في مدارس قسطنطينه من اعمال الجزائر وكانت اذ ذاك قافلة من سياحتها في تدمر فاعربت لي عن رغبتها في السياحة الى المعرة وهي قرية تقع بين حمص وحلب فلم اجد ما يمنعني من اتمام رغبة اكرم فتيات الافرنج واوفرهن ادبا واشدهن غيرة على تربية الفتاة العربية ولما وصلنا الى المعرة شهدنا قبر ابي العلاء المعري فاذا هو بعض حجارة مهدمة يشمئز من النظر اليها كل من له قلب ، وجنان ، فابدت الفتاة دهشتها وقالت: «اعلى هذه الصورة تكرمون شاعركم ؟ لقد كنت اتخيل قبره اعظم من « البانتيون » مقبرة عظماء امتنا ومنذ ذلك الحين اخذت اكتب المقالات المطولة في الصحف حاثاً القوم على ترميم القبر فلم يكن لصوتي صدى فانصرفت بعد ذلك الى وضع كتابي هذا ومثلت ابا العلاء المعري الشاعر طائفاً في اليونان القديمة واوربا الحديثة بين تماثيل العظماء شاكياً سوء حظه من امته ثم قدمت الكتاب للطبع وزينته باسم الانسة جان لوسي داريو التي كانت اول من دفعني الى وضعه وطبعه

المؤلف

à Mademoiselle

Jeanne Lucie Darieux

Professeur

de

Littérature arabe Dans les écoles

des filles arabes à Constantine (Algérie)

Hommages respectueux de l'auteur

M A

البعث

وكان اليوم صافياً فاتر الهواء سكنت رياحه ، وهدأ موجه ، والجبال غارقة في بحر من الشفق البنفسجي ، والزهر يعطر الاودية والغابات بأريجه الضاحك

وبينا الطبيعة تتهادى بجمالها الساحر واذ بالسماء قد انشقت وهبط منها ملاكان يلبسان ملابس بيضاء كزنابق الحقول ولما ان صارا على الارض اقتربا من رقعة بالية تمثل قبراً مهدماً وهتفا بصوت كجلجلة الرعود

ايها الميت الذي مرت عليه القرون وهو في ثنايا الارض لقد آن لك ان تبعث من قبرك لترى عظمة الاجيال وبعد برهة انفجر ذلك القبر وتبعثرت حجارته وخرجت منه روح عارية فتقدم اليها الملاكان وصرخا — يا روح المعري الاعمى ان السماء قد منحتكِ البقاء فاعتسفي في هذا الكون وانظري عجائبه .

ثم تراجع الملاكان وحلقا في الفضاء كأنهما لم يهبطا الى الارض وتمثلت الروح بشراً اعمى يمشي على عكازيه ويضرب بهما السهول

الفصل الثاني

حديث الروح

وعاش المعري اعواماً متعددة قلقاً مضطرباً فلما ان احس بالسأم صرخ صرخة ملأت الفضاء دوياً راعباً وقال

يا منير الحلك بساطع النجوم ، انك اذا لم تمنح معونتك اللاعمى التائه فالموت اقرب اليه من حبل الوريد

على هذه الصورة انهى الاعمى شكواه مصعدا زفرات قلبه حتى اصاب غابا مخضل الاغصان فجلس الى صخرة سابحا في حلمه الظلامي وقد صهرت فؤاده الدموع وافترست جبهته الحرور وكان يقفو اثره عن بعد ثلاثة من ابناء الارض استقصوا خبره وعلموا سره فودوا ان ينقذوه من اياسه وان يسمعوه اهازيجهم الراقصة ممزوجة بالحنان فلما ان شهدوه حاموا حياله وارهفوا اذانهم الى نجواه

فمن عساه ان يكون هذا الاعمى الهائم بدون دليل ؟

اهو من سكان مملكة السماء ؟

ان ملامحه لعظيمة ، وان في صوته لرنة تجتذب الهواء والماء والسماء والغاب، وسمع الاعمى خطواتهم فتبدد روعه و بسط اليهم ذراعا فحنوا عليه وقالوا

— لاتخف ايها البائس الغريب فان آلامك المبرحة سوف تاثر وتذوب واعلم بان السماء لاتهين البشر وهي ستهبك من الارض نوى تبغي به دعة وسلاما لأن صوتك العظيم الذي استرق الكون ما هو منحة السماء التي اطبقت عينيك

وجاءت الريح بغتة عاصفة في ذلك الغاب الواقع عَلَى الساحل كان لها زفيف ورنة فتناجت الاغصان وسواسا وهمسا ثم سرت عَلَى جبهة الاعمى فاترة رطبة فاحس بالقوة وقال

يا ابنائي

ان في احاديثكم اغاني الطفولة المقدسة ومع اني رجل اسيء الناس ظناً واضمر لهم ضغناً فما زلت ارى في اغانيكم هذه طهارة لعذارى و بساطة الصغار فلا تضارعوني باهالي الخلود فان هذه لتجعدات البادية عَلَى وجهي وبياض شعري وهذا الليل السرمدي لذي اراه ، كل ذلك دليل اياسي ، انظروا الى جبهتي فهل ترونها جبهة رجل من سكان السماء ؟ لست ايها الاطفال الاّ فانياً من اتعس البشر واذا كنتم تعرفون انسياً مسكيناً مثلي فبه ضارعوني وما انا في معتكفي هذا الا منكود ، مضلل الصواب ، ادع تيار الحياة الزاخر يمر بي جياشاً بما تحت لجه من اوصاب ومتاعب وانتم ترون ان السماء

قد ابقت لي الظلام والنفي والاضطراب والجوع وامامي هذا البحر الافيح [1] استمع لموجه المصطفق محبوس اللسان ثائر الوجدان

وصمت الاعمى صمتاً محزناً فجاء اليه الثلاثة بطعام سائغ لذيذ فاكل حتى رجعت اليه قواه وشعر بان دبيب الحياة قد اخذ يسري في جسده البالي ثم استوى جالساً صارخاً

احييكم ايها الصبية الغر واحسب العائلة التي انجبتكم سعيدة بكم تعالوا واقتربوا مني لكي اضع يدي على مفارق رؤوسكم فبهذه الطريقة استطيع ان اعرفكم ، ان وجوهكم طلقة ، وضاحة واصواتكم عذبة حلوة ووضع الشيخ يده على رؤوس الصبية وبعد ان اطرق مفكراً قال

لقد عشت في هذه البقعة العجيبة ، خلفي التلال الابدية ، وامامي الامواه الابدية ، هارباً عن ربعي ، وقومي ، في ظلام دائمي وكثيراً ما تغطيت امتري النوم ولكني كنت اجد بنفسي من عاصفات الهواجس اشد مما بسماء الله ذات البروج حتى هبطتم هذا المكان فاحسست بالخلود وعاد اصطخاب الموج في ادني غناء عذباً ، انه ليخيل الي ان اكبركم سناً قد قطع من شجرة الحياة ثلاثة عشر ، غصناً ، فاقتربوا مني ، فاني موهبكم ثقتي وما تم الاعمى جملته حتى

---

(١) — الافيح — الواسع

كان الثلاثة قد ركنوا اليه ونظروا الى وجهه نظر تحنان وحب وسأله اصغرهم عن باعث وحدته فاجاب متهدداً

ايها الاطفال الذين شابهت اصواتهم اهازيج القماري ، لاطفى عليكم السفاحون ولاحلق فوق رؤسكم طائر الشؤوم ، ان السآم قد سطا عليّ فنزعت الى الوحدة هائماً على طول هذه الشواطي مستمعاً لاناتّ لموج تارة واحياناً لثغاء القطعان التي كانت تعبر هذه التخوم وفي اقصى القلب رغبات نزاعة الى الراحة والسكون ولم تجنح نفسي الى هذه العزلة الا لما هجرت امتي خلقها القديم وداست برجلها كتب تاريخها وادابها واحتقرتني لنا بنوع خاص اذ الصقت بي جحودا وكفرانا ، وعزت اليّ ظلما وبهتانا ولقد وجدت اعم لها مجدبة عقيمة لاثمرة لها ولا جنى ، ولا طائل تحتها ولا جدى وقد اتفق انني حلمت فرأيت كأن روحي طارت محلقة في الفضاء في يوم نا عم الانفاس كان مساء وهاخرس الريح واجم الهواء غربت شمسه وراء صف من سحاب صهب ، ونوشح صدر محيطه قطعا من الشفق حمراء وكان ماتركه المد على اديم الساحل من ثغب وغدران يحمر كأنه مجاجات الدم المهراق فاحسست انا الاعمى الذي لم يخترق عينيه بصيص من نور بهدوء ملاء قلبي فتوسدت من الكلاء السندسي فراشا لينا ناعما

ثم شرعت اختلس الاحلام الذهبية من حين الى آخر ولم تمض على حالتي هذه دقائق معدودة حتى مر بي فريق من البشر فلما ان شهدني متخذا من الخضرة فراشا وثيرا هزأ بي وقال — هذا اعمى اعتسف السبيل فهلموا نبتعد عنه فهو بلا اغراق في التظني من الذين كفروا بالسماء ثم تقدم الي احدهم وقال « ارأيت صيع الله بك يا ... لم يحترم جمال ما يصنعه الله » ؟

وشكل هذا القطيع البشري الذي سخر بوحدتي حلقة ثم توارى عني مستنكراً كأنما هو يخشى حمى خبيثة او مرضاً راعبا ، اما انا فملت الى الصمت ومنعت قلبي ان يخفق ولكني وددت من السماء لو تهين حياتهم ومماتهم وترمي بها في لجة من النسيان راعبة حالكة وان تبقي اسماءهم ولها من الليل الساجي كفن وحجاب ومنذ ذلك اليوم صرت انظر الى الخليقة كأنها خيالات الشياطين الحمراء

ان هؤلاء لو سمعوا شعاري ، ولو وقفوا على اسفاري وكتبي وفلسفتي ورجعوا الى ضمائرهم لوجدوا انهم في ضلال مبين والان فاسمعوا قصة ثانية اسردها امامكم وعسى ان حديثي لا يضجركم

وكان الثلاثة قد مالوا اليه ، فلم يبتغوا منعه عن سرد اوصابه وتصوير اشجانه فقالوا له:

« قل كل ما لديك يا انيس العزلات ، وطيب الشعر الالهي فتبسم واستمر على شكواه

ايها الاطفال ، جعل الله سائر ايامكم اعياداً ، ووشحها بالزهر والندى وزينها بالاشراق والخلود ، لقد وددت في احدى العشيات ان اقتبل الأرق وانزع الى نوم مسحور جميل ولكني لم اعثر على طلبي فانبت السهد شوك القتاد تحت جنبي واقض المضجع وعزفت الرياح واختبطت الاعاصير في وسط دلك الاعتكار الظلامي فخيل اليّ ان الموت قد بسط جناحيه فوق معتكفي وان شواطيء الجزيرة واشجارها ، وازهارها قد تحولت الى قبور سوداء ثم لما نصف الليل سمعت اصواتا قريبة مني ، اصواتاً تهتدج في وسط ذلك الاضطراب الراعب ، وبغتة فتح باب مثواي وولجت منه اشباح كثيرة العدد فدنت مني وقالت ولرنة صوتها صفاء ورقة ، ايها الانسان المعذب ان السماء قد غفرت لك بعض ذنوبك فهي تمنحك النور بضع ليال وتأذن لك بالسياحة الى مرابع واقاليم لاتعرف لها صورة او اسماً وسنحملك نحن ملائكة الغفران الى تخوم غريبة وجزر حسناء لتشاهد عظمة القرون الماضية ، وحاولت ان اتكلم فلم استطع ثم تقدم اليّ احد الاشباح ووضع يده على عيني فاذا عمما لم تعودا مطبقتين وشاهدتا النور !

الفصل الثالث

سيروس

وترقرقت الدموع لاول مرة في تينك العينين اللتين لم تبصرا زرقة الجلد منذ وضعتني امي [١] فخثوت على قدمي شاكراً اله الكل ! . . .

و بعد حين حملتني تلك الاشباح النورانية وخرجت الى الساحل وانزلت بي الى زورق دقيق الصنع ووراء الزورق كانت الامواج تزخر من كبد الظلماء جياشة دافقة فتملكني الروع ومر في خلدي رعب ولكنني لم البث حتى طردت هذه الصور المذيبة لان الافق قد بدأ مؤتلق الغرة وضاح الجبين وهدأ البحر واخذ الزورق يسبح ثم ظهر القمر حبيب السماء فوق تلال وهضاب من ضياء كانها قطع اللجين ومن حوله جيوش ومواكب من المصابيح الخالدة وسار بنا الزورق يحفه الزبد الابيض كانه قطع النور حتى آل بنا سحراً الى ساحل عظيم

وقد صرت في دهشة من جمال الطبيعة فكدت افتح ذراعي للهواء والبحر والنور ، واخذت اصيح بكلام متقطع لا معنى له تضيع نبراته

(١) يقول كثير من المؤرخين ان ابا العلاء المعري ولد اعمى والبعض يخالف ذلك .

في هدير امواج الخضم ومددت بصري الى السماء كانني اريد ان اخترق بهحجب الجلد لارى من وراءها صورة الله فاشكره على منحه اياي الضياء الجميل وبالجملة فانني لم اعد انساناً بل صرت نسمة حية وقلباً طروباً ونفساً طائرة تسبح على شفا تلك اللجج ثم اتكأت على مقدمة الزورق وانا طافح القلب ، لا انبس ببنت شفة،وما عساني ان احتاج الى كلام وعيناي تنظران الشمس والجبال والهواء والماء والمجاذيف واهتزاز الزورق وزبد اثاره والسكون السائد قد اجتمعت كلها لتكلمني وكنت احشى ان تبدو مني كلمة تكدر صفاء ذلك السكون حتى لقد خلت انني اسبح من زرقة الماء الى زرقة السماء لاشتغال بصري عن الشاطىء المقبلين عليه .

وبقيت متلذذاً بهذه المشاهد الساحرة حتى سمعت صوت احد الاشباح يقول سنريك الان عصراً من عصور اليونان في القديم ثم سكت برهة وقال :

لقد وصلنا الى اول اقليم من بلاد الله

الفصل الرابع

آلهة الشفق

وانحدرنا الى الشاطىء فبدت لي الجزيرة بشكلها العجيب ، واشجارها ، وازهارها ، فسرت في مقدمة الاشباح وانا تحت تأثير عوامل كثيرة ، فقال لي احد الاشباح — اتدري اسم هذا الاقليم — قلت وانّى لي علم ذلك ؟ قال هذه بلد التماثيل البيضاء هذه جزيرة سيروس ، من جزر اليونان فقلت سيروس ، سيروس ، من جزر اليونان ، افهذه هي الجزيرة الساحرة التي ذكرها الشعراء الاثينيون في اغانيهم واشعارهم ؟ اجاب — نعم

فقلت سلام عليك يا سيروس العظيمة وعلى شعراءك الهائمين عَلَى طول ضفافك يصورون للعالم ما في جمالك من الابداع

وكان يتولج امر الجزيرة كثيرات من حسان اليونان ، وقد كان لايسوغ للرجل ان يظهر في ارضها فلما هبطنا هنالك اقبل لفيف من الفتيات العذارى وهن يركضن الى الشاطىء كأنهن شهدن حادثا مستغربا وفي مقدمتهن العذراء ايريس صاحبة اميوس آلهة الشفق وحاكمة الجزيرة وفي تلك الاثناء قالت ايريس للاشباح

ان جوبيتر اله الكل قد حظر عَلَى اميوس السماح للبشر

بالدخول الى هذا المأوى الطهور الذي لايلجه غير مجموع العذارى

وفي هذا النهار دخلت اميوس الى الهيكل المقدس فاوحي اليها ان المعري فيلسوف المشرق سينزل ضيفا في سيروس وقد كان صوت جوبيتر يقصف في الهيكل كجلجلة الرعود ، صائحا

« ايتها العذراء اميوس يا آلهة الشفق البديع ، توجي ارض سيروس بالزنبق ، والزهر ، واملاي الاكواخ والبيوت ، والحقول نورا ، ولمعانا ، فان ضيفك لعظيم ، ثم قال « ولقد منحنا القوة لنبثون اله البحر وامرناه بان يخنق روح امواجه المغبرة الصاخبه ، ثم ارسلنا آله الحب الى الغابات والوديان وقلنا له « انشر في هذه الاماكن المقدسة ، روح الهدو ، والسلام ، فان ضيف الجزيرة يستعذب الاخلاد الى الصمت ، والسكون ، ثم عليك ان تطرد البغض وتلاشي سمومه الزعامة ، اد ليس من الحكمة ان يعبر هذا الحكيم المشرقي ارضا نبت فيها اشواك المشاغب ، وسكتت ايريس برهة ثم قالت

— فاذا كان هذا الرجل الحكيم بينكم فان الجزيرة تفتح له روحها والأ فانطلقوا ....

فقال لها شبح من الاشباح وهو يشير اليّ — دونك المعري

يا ايريس !!

ورمقتني العذراء بالنظر المختلج من الحنان ، ثم اطرقت احتراما — وقالت — ايها الشاعر الذي بعثه الله حيا ليرى ماغبر من بدائع الاجيال المتقدمة والمتأخرة ، تعال الينا فانت ضيف اه يوس في هذا الصباح الجميل

قالت ذلك واخذت بيدي ثم اركبتني عجلة مزدانة بالذهب والفضة ، وقالت للعذارى فليذهب جمعكن الى اه يوس الخالدة ، مبشراً بقدوم الرجل العظيم

ولم تكد العجلة تخطو بي خطوات ، حتى رأيت موكباً عظيما يتشكل من حسان سيروس وقد افرغن عَلَى اجسامهن اثواباً مخملية زرقاء قد شابهت الوانها صفاء السماء وارخين شعورهن عَلَى اكتافهن ورأيت بين هذا القطيع عذراء كأنها خيال الشباب ، وخيال الجمال وخيال الحب ، حتى لاقسم انه لو خلق الله كرة ارضية خالية لقامت بانمائها واحيائها الى الابد وللحال عرفت اسم العذراء فكدت اصيح — يا اه يوس المقدسة امنحيني نعمة البقاء امامك الى الابد . وقطع تصوراتي صوت هذه العذراء الذي استرق الامواه والاعشاب ، والسماء والغاب ، فاصغيت فاذا بها تقول

تعال ايها الحكيم المشرقي ، يا ضيف سيروس العظيم ، واعلم ان عذارى هذه الجزيرة مكلفات برعايتك وحمايتك

واركبتني اهيوس في عجلتها الذهبية ، واحاط بنا مجموع العذارى واخذت العجلة تمشي بين هذه المخلوقات الخالدة والهواء ينبعث صافياً معطراً وصوت سيلاس آله الغناء يطرب تلك النواحي بالحانه ولما وصلنا الى مقر اهيوس اقيمت لي المهرجانات وخطب آله الشعر خطاباً اطرى فيه نبوغي وقال « اننا بتكريم المعري نكرم سماء الشرق الزرقاء التي هي شعار سيروس الحي

و بعد الفراغ من كل ذلك قالت آلهة الشفق « لقد سمحنا للعذراء ايريس بان تتولى امر مساعدتك عَلَى الطواف في ارض الجزيرة حتى ترى تماثيل العظماء من امتنا ذات المجد والسؤدد وفي اليوم التالي سارت بي ايريس والاشباح واخذنا نطوف ارض سيروس

وكنا نسير ونحن سكوت بين اشجار الصفصاف حتى طفنا المدينة باسرها وقد وجدت المسافة عَلَى طولها قصيرة المدى كأن الارض تطوي لي و يدنو بعيدها فاشتهيت لو اظل سائرا عَلَى مثل هذا الحال الى آخر خطوة من حياتي وكنا كلما مشينا نرى التماثيل كائنة على الارصفة، وبين خلايا الاشجار كأنها افراخ الحمام وفي

ذلك الوقت قالت لي العذراء ايريس — افتدري بماذا تمتاز هذه الجزيرة على بلاد الله قلت بماذا ؟ قالت حينما يعتكر الليل و ينبعث الهواء معطراً تبدو تماثيل سيروس الرخامية لعينيك كأنها الشموع المضيئة تغنيك عن نور القمر ، بل ن هذه التماثيل لتبدو كانها عذارى ثينا المتجملات بالملابس البيضاء ثم قادتني من تمثال رخامي يمثل رجلاً اعمى وقالت لي — اتعرف هذا الرجل — قلت ومن ؟

قالت هذا هو ميروس :

— هو ميروس الاعمى

— نعم ، ان يونان قدرته واوفته حقه فقامت له هذا النصب تخليداً لنبوغه وهي قد كرمت بذلك العاملين من ابنائها ثم رأيت في سفح النصب كتاباً رخامياً فقلت ، وما هذا الكتاب ؟ قالت هذه هي الياذة هوميروس التي ورد فيها ذكر قتال تروادة وهي تعد من امهات الكتب الادبية في اليونان ثم اخذت بيدي وقربتني من تمثال آخر وقالت — اتعرف لمن هذا ايضاً

— وانى لي علم ذلك ؟

— هذا لارسطو الفيلسوف ، وهذا التمثال الذي يقع امامك لافلاطون ، وذاك الذي تراه بعيداً لسقراط ....

— هوميروس ، ارسطو ، افلاطون ، سقراط ، كل هـذه اسمـاء اعرفها وقـد ترجم النابغون من قومي اسفاراً متعددة لاصحابها .

وبقينا في سيروس ردحاً طويلاً زرنا في خلاله القصور والهيا كل ومتعنا النظر بالانصاب التي شيدت تكريماً لمجموع العظماء.

الفصل الخامس

ديانا آلهة القمر

واننا لكذلك واذ باصوات جميلة الصدى قد طرقت اذاننا فالتفتنا نستجلي الامر ونستبين الواقع فاذا بنا نرى عذراوين من عذارى اليونان تمثلان ايام التصابي والشباب، بل كأنهما تمثلان وحي الشعراء المقدس وقـد كانت الازهار تزين رأسيهما فاخذت النظر اليهما نظراً طويلاً كاني اريد ان اخترق قلبيهما لاعرف مافيهما من الرغبات وتقدمت العذراوان من ايريس صاحبة اميوس آلهة الشفق وصاحتا بها « ايتها الاخت الجميلة ان ديانا آلهـة القمر [1] المباركة قد احبت ان ترى ضيف سيروس، وتدعوه الى قصرها فوق مرتفعات جبل الاولمب الطهور

(1) Diane dèesse de la lune

ولم تكد العذراوان تقفان لدى هذا الحد حتى رأيت وجه ايريس قد اشرق وقالت لا مانع من مكوثه بضع ليال في جبل الاولمب

وكانت الشمس قد غربت واخذ القمر يظهر ويفيض بذوب اللجين فوق الشجر والاكواخ فشعرت بسكرن يملأ قلبي ولم يعد في طاقتي البوح بشيء من الاشياء

وتقدمنا من الشاطيء فاذا هنالك زوارق كثيرة يتولى شؤونها سرب من العذارى الطاهرات وفي تلك الاثناء قالت ايريس لاحدى العذراوين

— ان فيلسوف المعرة الحكيم جدير بكل اجلال فيخلق بك اكرامه الاكرام الذي يتفق مع جلال اسمه

ونزلنا الزورق قاصدين جبل الاولمب الواقع في قلب احدى الجزر الحسان ، وقد كان اصطفاق المجاذيف في اعماق اليم محاكياً لاصوات الاعواد ، واغاني العذارى ترتفع كانها صوت آلهة الرحمة ، والقمر ينثر فوق الماء حبات الضياء والريح عزيف كالغناء ، واذان الليل كلها اصغاء واخذت زوارق العذارى تسير من على يمين الزورق الذي اعد لي وقد نشرت اعلام ديانا آلهة القمر وطفقت تتموج تحت تأثير الشمأل

ولما اشرفنا امام جزيرة زيلوس مقر جبال الاولمب الشامخة الاعلام ترأت لنا اشجار النخيل مشتبكة في ارضها كانها شوابك النجوم تلتفع بقطع الظلماء

وقد كانت جبال الاولمب معتكفاً الآلهة فيها قصور لا يسكنها الا المخلدون اما البشر فلا يسمح لهم بالاشراف على تلك الحوالي فلما هبطنا ارض الجزيرة صعدت بنا العذارى الى جبل الاولمب وكانت حجارته من العقيق ، ومرتفعاته من الذهب ، اما سفوحه فمن اللجين النقي فشرعت انظر الى سرب العذارى نظر الدهشة ، وكن يتسلقن الاعالي ، كقطيع الحملان ، فما اجمل هذا المنظر !

وبقيت محدقاً بهن رائحاً في اعجابي ، الى اقصى حدوده وقد ذهلت عن الاشياء ، ونسيت كل ماضيّ ، وحوادثه ، وآلامي ، ودموعي ، الا هذه الصور الجميلة التي تتراءى امامي

وسجا الليل في تلك البرهة ، راخياً ستاره الظلامي فوق تلك المرابع الضاحكة ، واخذ البدر يظهر من بين السحائب التي كانت تجري من تحته

ونظرت الى البحر من فوق قمة الجبل فاذا بي ابصر خيال القمر يرقص بين ثبجه ومرجاته ورأيت الضوء يلمع على صحيفة الماء

فتخطفه الامواج قاذفة به على الساحل

ومر علي روح طويل وانا فاقد الحس والشعور لحلاوة هذه المشاهد الساحرة حتى وصلنا الى مقر ديانا الحسناء فوق اعلى قمة في الاولمب !

وهنالك تطلعت فاذا بي ارى جيشاً من العذارى الحسان قد ارتدين بالملابس البيضاء وعقدن على رؤوسهن اكاليل الياسمين والزنبق وامسكن بايديهن مجامر البخور يحترق طيبه تحت ذلك السكون فيتصل بالقلوب والضمائر وكان بين هذا المجموع المقدس فتاة اعارها القمر صفاء وجهه قد انسدل فوق جسمها المضيء ثوب ارجواني كقلب الشفق فحدقت بها بنظر مضطرب وكانت تحمل قوساً من الفضة، ونصالاً من الذهب فتقدمت مني العذراء سلاميس التي جاءت الى سيروس لتحملني الى الاولمب وقالت لي اليك صاحبة السمو الاعلى ديانا آلهة القمر فخطوت من اميرة الظلام وكدت اجثو امام قدميها فبسطت الي يدها وقالت اياك ان تفعل ذلك ايها الوحي السامي الذي يرشد مجموعنا الى الطريق السليم ، و بعد فلماذا سجودك امامي وانت مثلنا اله معبود ، سماؤه الحب ، وارضه الجمال، ومخلوقاته الازاهر ، فادخل الى الاولمب الاقدس فان شعوبه الخالدة

تستقبل فيك ايها الوحي شاعراً يمجدنا في ابياته ومنظوماته ! ! ثم رفعت يداً كانها المرمر الشفاف واشارت الى العذارى قائلة « ايتها الاخوات الطاهرات ، اليكن هذا العظيم ، فادخلن به الى الهيكل وعظمنه وقدسنه ولا تدخرن وسعاً في تكريمه فانما انتن تكرمن وحياً ترامى الينا من المشرق الذي تحبه الآلهة جمعاء

وكان صوتها صافي الرنة لطيف الوقع في الاذان اثر في نفسي حتى خلت ان صداه مابرح يتردد في اذني بعد وقعه بساعات ، كما يتردد صدى الاعواد في الاسماع . وقالت ديانا ايضاً !

وليذهب بعضكن الى اخي ابولون[1] آله الشمس ، وآله الغناء فاني في حاجة اليه وعساه ان يأتي قريباً فيشاركني بالحفلة التي اقيمها للفيلسوف العظيم

وفي ذلك الحين تفرقت العذارى وسرن في طرق مختلفة وطار بعضهن في الفضاء حائمات فوق قصر ابولون آله الشمس

اما ديانا فامسكتني بيدها وقالت لعذراء كانت امامها « اليك هذا الضيف ، فادخلي به الى الهيكل وعما قريب انضم اليه »

وامسكتني العذراء بيدها وسارت بي الى هيكل ديانا

---

(1) Apollon dieu du soleil

الفصل السادس

عذراى الامواج

وقبل ان تدخل ديانا الى مقرها في الهيكل انصرفت الى الصلاة وركعت الى جانب قطعة رخامية،وضممت يديّ المرتعشتين وقلت « ان قومي لم يكرموني ولم يعرفوا قيمة نبوغي بل انهم ازدروا شأني ورأوا نبيّ كافراً ملحداً في حين ان الغرباء يقومون بتقديس اعمالي ثم نزعت الى الصمت قليلا وبعد برهة التفت فرأيت ديانا آلهة القمر واقفة في باب الهيكل تنظر اليّ نظر الاجلال فشخصت بابصاري اليها واخذت في صلوة طويلة حتى بكيت فسالت دموعي وملأت عيني وحالت بين نظري وبين من كنت اصلي لاجلها....

وكأن ديانا قد شعرت بشدة المي فدنت مني قائلة « رويدك ولا تحزن فسترى مايقر عينيك ثم انهضتني ورفعت بيدها ستارنا فاذة تطل عَلَى البحر الذي يزخر تحت سفائح جبل الاولب

ورأيت في اعماق الظلام خيالات بيضاء تتموج فوق اليم فحسبتها طيوراً سابحة ، وكان الزبد يحف بهـا من كل جانب فاخذت افسر معنى ذلك فلم استطع وحسبت هذه الخيالات اللجينة نجوماً تساقطت من الجو فوق سطح الماء واخذت تسبح وبقيت برهة

في ذهولي وارتباكي وكانت الخيالات تتقدم عائمة وتتموحتى تبينت وجوهها وعلمت بانني كنت مخطئا في ظني فليست هذه طيوراً ولا نجوماً بل انها عذارى تطير فوق الماء بملابسها البيضاء واجنحتها ترتفع من حين الى آخر في الفضاء فقالت لي ديانا ارأيت عذارى جزيرتي فانهن قدعدن من سفرهن وعما قريب نحتفل بك احتفالاً عظيما

وتكلمت ولكن كلامي كان يخرج متقطعاً من فمي واخذاحمرار الخجل يجول في وجنتي كما يجول احمرار الشفق في اديم الغيوم البيضاء وفي ذلك الوقت رأيت العذارى قد صعدن من البحر فوق اعالي الجبل ثم هبطن امام قصر ديانا ودخلن الى الهيكل وقلبي يخفق خفقانا خفت ان يشق صدري من شدته

الفصل السابع

حفلة ديانا بحضور آله الغناء وآله الشعر

وتقدمت العذراء سلاديس من ديانا صائحة

ان ابولون سيكون هنا في الصباح وقد جاء معه آله الشعر ليحضر الحفلة التي اعدت لتكريم الحكيم الشرقي

فقالت ديانا

اداً عليك بنثر الزهور على الارض حتى يسير عليها ضيفنا !

وحاولت في ذلك الوقت ان انظم بعض القصائد في وصف جمال ديانا الساحر ولكني لم اجد سبيلا لتحقيق اماني ورأيت في وجه تلك الحسناء قصيدة الطبيعة ، بل كنت ارى صورتي في نظراتها وصرت في ذلك الحين ادعوها سراً اجد به حقيقة الوجود ، وسماء العبادة ، وطلعت شمس الغد حمراء كالضرام و بدت السماء صاحية زرقاء فرأينا قبالة السفوح زورقاً عظيما تعلو مؤخرته شارة ذهبية فاطلت ديانا ناظرة الى الزورق وقالت

— لقد وصل اخي ابولون

وهبت مع السحر نسمات ضعيفة الانفاس وتحرك الزورق ورأينا ابولون قد تسلق الجبل ووراءه آله الشعر

واسرعت ديانا لاستقبال آله الشمس وما هي الا برهة حتى رأيتها عاكفة على اخيها حتى تدانى الثغران فكان ثغرها يتلمس النفس في ثغره وقالت له

تعال الي فاني مريك وحيا شرقياً نزل بارضنا فقال ابولون لقد علمت بانك تريدين اقامة حفلة لتكريم ضيفك

قالت اجل واراك ستشاركني في هذا العمل فقال ابولون لك ما تشائين ايتها الاخت ،ولقد اقبلت الى هذه الحوالي مع ارباس اله الشعر الذي سيزين الحفلة بقصائده العذبة الطاهرة

وكما ان ديانا كانت آلهة القمر والصيد معا فان ابولون كان آلها للشمس وللحكمة ، والنبوات ، ولم يطلق عليه اسم آله الغناء الا لان الاطيار تملأ الغابات باناشيدها المفرحة عند طلوع السحر فقربته ديانا مني وقالت دونك وضيفك الكريم يا ابولون

فبسط ابولون الي يديه مرحباً قائلاً « ايها الوحي الذي هبط الينا من الشرق، ان جزر اليونان تستقبل فيك الشاعر الذي يكرم سماءها وبحرها وارضها

واعلنت العذراء سلاميس ان الحفلة قد ابتدأت في الهيكل وان ابولون سينشد انشودة من نظم آله الشعر ارباس يمتدح فيها المعري

وكان الهيكل مملوءاً بالازاهر والرياحين وقد ضاءت المصابيح في وسطه واخذت العذارى تتقدم مني حتى تمكنت من مساعدتي على الصعود الى عرش عظيم فجلست عليه تحيط بي ديانا وترائبها الطاهرات ،

وصعد آله الشعر منبراً عظيماً واخذ بتلاوة قصيدته في امتداحي وكان صوته يتصل بالافئدة فيجعلها راقصة وقد جاء في قصيدته وصف بديع للشرق وشعرائه فلما وصل الى ذكر اسمي قال :

فاذا كرمنا المعري في هذه الاونة فذلك لانه كرم الزهور ، والنور ، وقدس الحب

نكرمه لانه جعل الحب الطاهر شعلة نار تنير العالم والسماء ، ثم نزل عن المنبر بين ضجيج العذارى وهتافهن المستمر وصياحهن المتوالي « المجد لابي العلاء »

ونهضت ديانا اذ ذاك وخلعت عليّ رداء ارجوانياً وقالت دونك هذا الثوب فهو دليل الحب الاكيد الذي تحفظه لك بنات هذه الجزيرة .

وبعد ان اتمت كلامها قام ابولون وانشد قطعة غنائية الم فيها

بذكري فاخذت ارتعش من السرور ، ولم تعد لي طاقة على الكلام وكدت الاقي الموت ، لان هذا اليوم ، وهذه السماء التي تبدو امامي وهذا المنظر الذي اراه ، وهذا السكون والسكوت ، كل ذلك قد اثر بي حتى كاد يجعلني منسياً من نفسي

وعند انقضاء الحفلة تفرقت العذارى وخرجت من الهيكل تصحبني ديانا الى الشاطيء و برحت جزيرة آلهة القمر والاشباح التي كانت معي ترافقني وتراقب اعمالي وقبل ان اتوارى نظرت ديانا اليّ من فوق اعالي الجبل نظرة طويلة وقالت لي « سر فانك واجد من قومك في المستقبل الآتي ما يبدد همومك » ثم قالت « وستلاقي في اسفارك قلب الخضم ساكناً صامتاً ، فلا تثور الرياح ، ولا يضطرب الزبد ، لاننا امرنا نبتون آله البحر بان ينشر اعلام الهدو في البحار التي تجتازها في فلكك »

واخذت ارتعد واقول في نفسي « ايمكن ان يتحقق قول ديانا ؟

وفي ذلك الوقت قال لي احد الاشباح — سندخل بك اليوم اقليماً جديداً ، وسنريك عصراً متأخراً لم تره عيناك

مدينة المياه

ولقد اصبحت ملتاعا كثيباً لمفارقة ديانا آلهة القمر وتطرق الى قلبي غم مذيب واخذت اضطرب فكان ثمة ملائمة بين فوران اليم وفوران صدري وعجبت كيف ان هؤلاء اليونانيين قد عرفوا قيمة ادبائهم فاقاموا لهم الانصاب والاصنام في حين ان الامة التي انتسب اليها تحتقر ادبائها مع توفر عدد هؤلاء بينها ولقد كدت استنزل اللعنة على امتي ولكنني احجمت عن ذلك وتذكرت ديانا القائلة « سر فانك واجد من قومك في المستقبل الاتي ما يبدد همومك » وبقي الزورق ماخراً العباب اياماً طوالا وعشيات متعددة كنا في خلالها نرى كل الشواطىء والقمم والمضايق والخلجان والوديان والصخور حتى هبطنا خليج البندقية من اعمال الرومان فعبرناه ودخلنا المدينة نفسها فبدت لنا اسواقها تزدحم بالانصاب ، والتماثيل والهياكل والمعابد ، وكانت سماء البندقية قطعة لازوردية وشمسها اجمل من تلك الشموس التي تسطع في غيرها من الاقاليم فاخذت اسير في شوارعها مطرق الرأس استحياء والاشباح تعرفني بالتماثيل حتى وقفنا امام هيكل عظيم صيغ من العقيق وفي جوفه ثلاثة انصاب يمثل احدها عذراء

فقلت لاحد الاشباح وهل تعرف لمن هذه التماثيل ؟ قال

نعم — ان هذا التمثال الكبير يمثل روفائيل النقاش والثاني للشاعر الايطالي دانتي امـا التمثال الذي يمثل الفتاة فهو لبياتريس الحسناء .

— قلت وما خبر هؤلاء ؟

— ان الاول كان من امهر المصورين في عصره والثاني كان رب الصناعة الشعرية ، اما بياتريس هذه فهي حبيبة دانتي ، ومعبودته التي كانت توحي اليه اجمل التذكارات ثم تركنا الهيكل وطفقنا نجوب الاحياء والاماكن الواقعة على الشاطيء واخذنا نلهو بمناظر التماثيل امداً ليس بقصير حتى سجا الليل فكان ليلاً جميلاً وظهر القمر باجمل مظهر تحف به سحابة سوداء ثم انحسرت عنه تلك السحابة وتساقط النور ابيض صافياً غضاً رطيبا على اديم الماء الساكن الارجاء ، الصامت النواحي ، فقلت لاحد الاشباح — اقسمت عليك بالسماء ذات البروج الا ماسرت بي الى غير هذا الاقليم فاني ضجر تعب ، والحقيقة ان السآم قد استولى عليَّ ولم يعد في الطاقة البقاء طويلا في هذه المدينة التي هي عبارة عن فردوس يهيم فيه الشعراء والمغنون والمصورون ، والتي يسميها العالم مدينة المياه

وتذكرت ارض المعرة حيث وضعتني امي فتمثل لي نهارها بلا شمس وليلها بلا قمر فقلت اين هذه القرية القحلاء التي لا ينبت في ارضها زهر ، ولا يسقط من جوها ندى ، من البندقية تلك المدينة الساحرة ذات الجلد الازرق والجمال المخلد البديع ، واثرت كلماتي في قلوب الاشباح فقالوا :

سنسير بك الى اقليم آخر تنتهي عنده سياحتك

ثم اقفلوا بي الى الزورق الذي اخترق احشاء المياه بسكون وهدو وكنت اوشك ان افارق الحس والشعور وفي ذلك الوقت تبددت الغياهب والغيوم واخذ الفجر بالاشراق والزورق يسبح بنا فسرحت طرفي في زرقة الماء وقد تشابه لونه بلون السماء حتى لم اقدر ان اميز اين يلتقيان وحتى حسبت نفسي طارت مني فاخذت تسبح بين الازرقين وكان يومئذ وقت الخريف فنظرت الى الاشجار المغروسة على الشواطيء التي كنا نسير من امامها فاذا بي ارى اوراقها تتناثر عن غصونها تحت صقيع الصباح وكان لسقوطها على الارض عزيف كأنين العاشق ، فقلت — هكذا عمرنا يبدو زاهراً كالزنابق ثم تهرمه الحوادث فيتداعى كالزهرة تبدو في الربيع معطرة ، ثم يأتي الخريف فتعصف رياحه من حولها فلا تلبث ان تذبل وتنضب امواه

الحياة فيها »

وتوارت عن اعيننا الشواطيء واصبحنا في وسط البحر الصافي وفي ذلك الوقت قلت لنفسي ، ان دياناً لم تكذبني فالبحر قد حبس صوت اصطخابه وخنق روح امواجه ،

واشرفنا في المساء على ساحل عظيم فسألت احد الاشباح عن اسمه وعن سكانه فقال « هذه مارسيليا الجميلة، وسكانها من الفرنسيس الذين لم تعرف خبرهم في ماضيك

ووقف الزورق بنا واستعدينا للنزول الى اليابسة وما هي الاّ دقائق حتى هبطنا الارض واخذنا نسير في المدينة العظيمة وطفقت اسير بين الاشباح وانا ناظر الى السماء بذهول كأنما قد سمّرت عيناي في صفحة الجلد حتى لقد ذهبت الى ان في سماء هذه المدينة قوة تجذب النفوس كما ان في الارض قوة تجذب الاجسام ،

وتراءت لنا عن بعد عجلة كبيرة فاشار اليها الاشباح بالوقوف فوقفت وركبناها قاصدين عاصمة بلاد الفرنسيس

وبقينا على السير زمناً طويلا حتى وصلنا الى تلك المدينة التي اسماها الاشباح لي « بابل الجديدة »

الفصل التاسع

في مياه السين

ولما وصلت الى قاعدة الفرنسيس رأيت فيها ذلك المعتكف ، الذي يخلد اليه كل الذين يحبون الجمال ، ويقدسون الحب ، و يعبدون الطهارة ، يمر في وسطها نهر مياهه مترعة تدفق ، ومن حوله اغراس ناضرة تألق ، تترآى في شوارعها التماثيل ، والابراج ، والهياكل ، والمعابد ، بيد ان جوها تكسوه عند الصباح سحابة كثيفة ، من الغيم حتى اذا طلعت الشمس وعزفت الصبا وصبت لها الافنان والاوراق ، جلت تلك السحائب السود كما يجلو بنان العذراء صدى انفاسها عن مرآتها وتظهر السماء في جلد ازرق لا يتطرق اليه ركام ولا يمر فيه سحاب ،

ولما وجدنا ريح، روضها وآنسنا ، زهرة نضارتها ، نشطنا لرؤية الجنات والفراديس ، وجعلنا نمشي بين الهياكل ، العظيمة ، والقبب الشماء وفي ذلك الوقت ، دوى في اذني صوت الشيخ وهو يقول هلموا بنا ننزل في زورق الى النهر فنطوف حيال ضفافه ونرى محاسن المدينة ، ثم توقف برهة وقال « و يجمل بنا ان نسرع الى حاكم هذه الضواحي فلعله يبعث الينا بمن يهدينا السبيل »

وسرنا الى دار الحاكم نطلعه امرنا ، ولما وقفنا امامه وبسطنا له الغاية ،من السياحة في هذه المرابع الضاحية ، ترقرقت ابتسامة صافية عَلَى شفتيه وقال « ان امثنا التي تمجد النبوغ ، في كل وقت ، وتحترم الادب ، في كل حين ، تفتح للمعري المشرقي صدرها ، وتبسط اليه يديها ، ثم دلنا عَلَى منزله الخاص وقال

لقد تركت هذا البيت لسكناكم وهو واقع عَلَى طرف المدينة وراءه حديقة زاهرة تفرشها الخضرة والاعشاب وتكللها الدوالي والاعناب ، ملتفة شجراءوها ، رقراقة ينابيعها ، ثم سكت ، فبسطنا له رغبتنا في الوقوف على المابد والهياكل والتماثيل ، ومقابر العظماء فتبسم وقال ولصوته رقة وصفاء « سأجعل ابنتي العذراء دليلا لكم » ثم صفق بيديه وانتظر برهة و بعد حين اقبلت الينا فتاة ، قد ارتسمت عَلَى وجهها خيالات الراحة ، والحياء ، والدلال ، والجمال ، فرأيت في صفاء وجهها معاني الرقة والحب ، فاقتربت من ابيها ووضعت يدها عَلَى شعره ، تعبث به ، ثم رأيتها قد انفرجت شفتاها للابتسام وقالت « ايه ، يا بي ماتطلب ؟ »

قال

ان هؤلاء الذين ترينهم امامك هم ضيوف باريس ،

تراموا الينا من الشرق ، و بينهم شاعر حكيم ، ولقد رأيت ان تكوني دائماً معهم في اثناء طوافهم حيال الهيا كل ، والمعابد ، فضحكت وتمايلت تمايل النشوان ، وقالت مثلك من يطاع يا ابتي » ثم صافحتني وصافحت الجميع »

وتركنا دار الحاكم قاصدين ضفاف نهر السين ، والفتاة بيننا وحرس الحاكم يسيرون ورائنا وكان المساء لم يحن بعد فصعدنا فلكاً جميلاً اعده الحاكم لسياحتنا ثم نزلنا النهر واعمل رجال الحاكم التجذيف فسار بنا الفلك كأنه السهم مرق من قوسه يشق عباب الماء حتى يكاد لايمسه ، وكان السكوت قد شمل الارض ، والسماء ولم نكن نسمع صوتاً غير ، وسوسة ، الموج يزخر على ، جانبي ، الفلك فتمثل ، الكون امامنا شطرين ، نصف للبر ، وآخر للماء ، واخذت الشمس تغرب ، فنظرنا الى الافق نظراً طويلا فبهرنا مشهد الشفق وكادت ملاءته الحمراء تميل بنا الى نسيان كل شيء وهي قد نشرت على شطر السماء كأنما الجو بحر مورّد اللجة ، بل كأنما الجو قد دب اليه الحريق ونظرت الى السماء فرأيت القمر قد اخذ بالاشراق ورأيت اوراق الاشجار القائمة على الشاطئ تتساقط تحت نسائم الخريف فكانت تلك الاشجار في مثل فصل الخريف على مثل شبابي وقلق

افكاري داعية الى اضطراب نفسي فاخذت اغوص في بحر من الحزن عميق كله تأمل وجمود ولقد لبثت على هذه الحالة برهة طويلة وعزمت في النهاية على ان اخلد الى سكون ووحدة، وسكوت لا ارى فيه غير الراحة وما اجدرني بالاخلاد الى مجاورة الطبيعة انا الشاعر الذي لا يهمه الا ان يكون سابحاً بين ثنايا الشفق الارجواني ، يستأنس بالرمال الصامتة والكهوف الساكنة ، واللجج المزبدة ، والخليج المضيء ، يصور النجوم والسماء ، و يضحك للفجر والمساء كأن كل هذه المخلوقات الجميلة قد خلقت له ،

وقطع تصوراتي هذه صوت الصبية القائل — هلموا بنا نرجع الى زيارة المعابد والهياكل .

الفصل العاشر

شاعر الدموع

واخذنا ، نسير تحت ، ظلام النيل ، والفتاة تحدثنا باجمل الاحاديث وكانت محادثاتها تنقل افكاري ، الى عالم من التصورات ، والاحلام لم اكن اقوى ، عَلَى فهمه ، حتى ، خلت نفسي انني في عالم مجهول محفوف بالاسرار ورأيت كل ما كان بي من تشاؤم ، وانقباض ، وبغض ، قد تبدد في لحظة ، فما اشد وطأة ، جمال الحسان ، عَلَى قلب الشاعر!

ان الزهرة مهما تضوع ريحها ، والبستان مهما كان مملوءاً بالافنان والاغراس النضرة ، فلا بد لها من عبور سن الكهولة فيتطرق الى الزهرة ذبول يحني رأسها و يضعف عبقها ، الطاهر ، والبستان تجرده ، العواصف الهابة من اوراقه ، وزنابقه وریاحينه ، ونسرينه ، فيصبح ذا منظر باهت ممقوت ، وتغدو اشجاره واغراسه في اقل من القليل كأنها خيالات الموتى اما الشاعر فلا يشيخ ولو ابيضت شعوره بل انه كلما تقدم خطوة في طريق الشيخوخة يتمثل امام الكائنات شاباً تترقرق في وجهه مياه الانسة وهو اذا احتاج الى الشباب لايعدم وسيلة توصله الى حلمه اذ يرى في الغاب ، والسماء ، والبحر ، والجمال والحب ، كل خيالات الشباب ، الذي يقدسه ، و يعبده

و بقينا نسير امداً طو يلا حتي وصلنا الى ساحة عظيمة مزدحمة بالتماثيل النحاسية فطفقت الفتاة تسرد لنا اسماء اصحابها وهي اسماء غريبة عن مسمعي و كانت تقول : هذا التمثال لبطرس كورنيي [١] وهـذا لجنا راسين [٢] وذاك لتيوفيل غوتيه [٣] والاخر لاندره شينيه [٤] والذي الى جانبه لالفريد دي فيني [٥] حتى آل بنا الامر الى الهبوط امام هيكل ضخم البناء فتوقفت الفتاة عن السير وقالت: هنـا قبر شاعر الدموع ، والشباب ، شاعر الحب والليالي، المقمرة ، ثم سكتت و نظرت الي النظر الطو يل كأنها تريدان تقول لي «ارأيت كيف نمجد ادبائنا »اما انا فقلت: ما اسم الذي تمجدينه ايتها العذراء ؟

---

(١) بطرس كورنيي . شاعر فرنسوي ولد عام ١٦٠٦ في مدينه روان ومات عام ١٦٨٤ في باريس امتاز بوضع الروايات التمثيلية الحماسية الوطنية واشهر رواياته « السيد »

(٢) شاعر فرنسوي ، ولد عام ١٦٣٩ في مدينة لافيرتيه ميلون ، ومات ببار يس عام ١٦٩٩ امتاز بالشعر الغرامي الرقيق ومن رواياته اتالي واستير

(٣) تيوفيل غوتيه شاعر رقيق ولد بتارب سنة ١٨١١ وتوفي سنة ١٨٧٢ في مدينة بنوبي

(٤) شاعر نابغ ولد في الاستانة من ام يونانية عام ١٧٦٢ وقتل في ثورة سنة ١٧٩٤

(٥) الفر يد دي فيني — من اكبر الشعراء ولد في لوش عام ١٧٩٧ ومات بباريس سنة ١٨١٠

قالت: الفريد دي موسيه [1] فاذا رغبت في ان اقص عليك بعض اشعاره فلا ترى مني نزوعاً الى التردد

وتقدمت من الهيكل وفتحت بابه وازاحت ستاراً كان مسدولا فوق رمس الميت فاذا بنا نرى رسما يمثل السهر والعذاب وقالت: انظر ايها المعري ، هنا في هذا المدفن، تغيب شموس امتنا، فلا تسطع بين ذوي الحياء ولكن آثار هذه الشموس التي تركتها قبل كسوفها تبقى مخلدة بيننا، واعلم بانني ساسمعك، اجمل اغاني هذا الشاعر الذي هجرته حبيبته وتركته والذي كان يرى جمال الحياة بين السماء والجبال والبحر والامواج

قلت -- كلي اذان فتكلمي

واخذ صوت الحسناء يدوي تحت ذلك السكون كاجمل ترنيمة ولكنها قبل ان تبدأ بانشاد القصيدة قالت « ساسرد امامك قسما من هذه المنظومة التي عنوانها ليلة تشرين ، وهي من انفس الصور التي رسمتها ريشة الشاعر وبعد ذلك شرعت في الانشاد على الصورة الاتية

---

(١) الفريد دي موسيه من اكبر الشعراء ولد في باريس سنة ١٨١٠ صيرته الاحزان شاعراً عظيماً وقدمات بتأثير الادمان على اللذائذ والخمرة سنة ١٨٥٧

La nuit d ' octobre

ليلة تشرين

آلهة الشعر

احنو وارق لقلبك الواله ، كالام الشفوقة، التي تسهر بجانب مهد طفلها المحبوب ، وارتعش فوق هذا القلب الذي كثيراً ما باح لي بجواه واوجاعه ، وها انا ساهر ينبو بي المضجع ، و بيدي المزمار اعده لرقيق النغم وحلوه لتتبع صوتك الكئيب فعساني ابدد ماران عَلَى قلبك من الوجد والتبريح

الشاعر

ليس من عمري الاّ ماقضيته ، في العمل ، فما احيلى الوحدة ، بل ما اعظم صنيع الخالق الذي زين لي الابتعاد ،عن البشر ،وحبب اليّ الالتجاء الى غرفة مطالعتي هذه كبائس يضر به القنوط ، كم من المرار بدت لي، هذه الساحة قفراء شاحبة ، يفترش الغبار فيها المقاعد وليس من خليل سوى ضوء المصباح ، فيا ما احيلى هذا القصر بل كوني وعالمي الصغير ، وانت ايها الخيال السرمدي تعال ننشد فاني لشديد الرغبة في ان ، ابوح لك باسرار قلبي، وساحدثك بما تحتقبه النساء وبما رمتني به احداهن ، حتى صرت لها عبدا لايملك ارادة ولا قوة ، وكنت في القديم اسبح، في اللذائذ والسرور ، نمشي على

تلك الرمال الفضية على مقربة من البحيرة وامامنا شجر الحور الابيض تعبث به النسائم العازفة كأنه الدليل الى الطريق الذي نسلكه وكنت ارى تحت ضوء القمر هذا الجسم الجميل يلتوي بين زراعي ويتململ كماء البحيرة ، والسكون يشمل ماحوالينا ولم اكن احسب للمصائب حساباً لان السعادة كانت تسمو بي الى الاعالي ، ولكن نار الموجدة تسعرت في نفس الآلهة فاحست ، بانها في حاجة الى ذبيحة وقربان فصبت عليّ غضبها ، وانتقمت مني لاني ، وددت ان اكون سعيداً من طريق التجربة

وكان صوت الفتاة يخرج من شفتيها بطريقة مؤثرة وبعد ان سكتت قالت ، سأتلو عليك قسما آخر من ، هذه القصيدة وفي هذا القسم سترى الشاعر ، كثير الغضب للخيانة التي ، رمته بها حبيبته ،

آله الشعر

اقسمت عليك بالسماء ، ذات البروج الاّ ماخففت احزانك فاني ارتعش من حديثك ، وارى جرحك ايها الحبيب سينفجر ثانية ، تعساً لهذه الدنيا ، لاننسى اوصابها الا بعد مرور الاحقاب والسنين ، فاسل ما استطعت ، احزان ايامك واطرد اسم هذه المرأة التي لا احب ذكرها من مخيلتك

الشاعر

ما اسوأ مصيرك انت يا اول من علمني البغض وصيّرني شديد الذهول ، من الغضب ، والقلق ، يالك من خاسرة انت ايتها المرأة التي سحرتني بعينيها واوقعتني في شرك حبها الذي دفن ربيعي وايام هنائي في عالم الخيال ، ان صوتك ، وابتسامتك ، ونظرك ، الذي يفسد الانسان ويضله لمن الاشياء التي لقنتني اللعنة والاذدراء ، ان الذي قذف بي الى اظلم الحفر انما هو صباك وجمالك !

يالك من خاسرة ، فاني كنت كالطفل في طهارته وكان قلبي كالزهرة لم تفتتح من اكمامها الاّ لحبك ، وقد حطمت هذا القلب الذي لم يجد منك معيناً ولو كنت تركته خليا لكان اسعد حظاً ، ما اسوأ عملك ! انت يا ام قلقي ووجدي ، انت يا من اجريت منابع الدمع من عيوني ، حتى ظل مسترسلا في فيضانه بدون ان يسعده الحظ بمن ينقذه ولكني سأتطهر في هذا المنهل المر فعساني ادع فيه كل اوساخ تذكارك الفظيع

واستمرت على تلاوة القصيدة حتى بلغت النهاية ثم قالت كيف رأيت ؟ افلا يستحق شاعرنا التمجيد والتقديس . قلت — بلى .... قالت « اصغ اليّ فاني سأسمعك قصيدة محزنة عنوانها لوسي فاصغيت فاذا بها تنشد :

Lucie

لوسي

يا احبائي الاعزاء ، اذا استسلمت للردى ، هلموا وازرعوا حيال الرمس اغراس الصفصاف ففي قلبي هوى لاوراقها البالية ولاغصانها المرسلة الباهتة فما اجمل ظلها الظليل فوق ارض سانام فيها نومي الابدي

كنا لوحدنا في احدى الليالي ، فجلست الى جانب لوسي ، فاذا بي اراها منحنية عَلَى المعزف [1] ثم اخذت يدها البيضاء تعبث به ، وهي سابحة في لجج احلامها ، فكأني في ذلك الوقت اسمع صوت انسياب المياه ، وكأني اسمع زفيف النسيم ، البعيد ، يمر في الغاب همساً حتى لا يقلق طيوره ، وقماريه ، وكانت ملاذ الليالي الساحرة ، يتضوع عبقها من بين ثنايا الازهار ، وعَلَى مقربة منا روض اريض ، به شجر الصفصاف والحور ، تتهادى ، جزوعه تحت عصف ، الشمأل ، ونحن ننصت لسكون الليل ، وكانت النافذة مفتوحة ، يمر منها طيب الربيع وعبقه والرياح واجمة خرساء ، والسهول صامتة قفراء ، وكنا لوحدنا صرعى البلابل والشجون ، وليس لنا من العمر سوى خمسة عشر عاماً

نظرت الى لوسي ، فاذا بي اراها ، تلك الفتاة الشقراء الباهتة ، يزيدها جمالاً جفنان صافيان اين منهما صفاء السماء ، وزرقة الجواء

(١) المعزف — البيانو —

فشعرت بان جمالها قد تغلب على كل قواي ، وكنت لا احب غيرها في العالم ، وليس بي الا ذلك الحب ، الذي يشعر به الاخ امام اخته ، ورأيت الحياء يعتلج في قلبها بل رأيت كل حركة منها يشملها التردد والخوف ،

وبينا السكون يشمل كل ما حولنا ، اذ مست يدي يدها ، فرأيت جبينها المضيء ، قد عشيته ، ركدة وعلاه الحزن ، وكنت اشعر ان لشباب الوجه ، وشباب القلب ، وهما اليفان ، تأثيراً عظيماً في شفاء كل ما يخامرنا من الجوى ، والسهد ، وطلع القمر في سماء خالية من الثلج ، ثم احاطت به سحابة بيضاء كانها النسيج الفضي ، فرأت لوسي رسمها مصوراً في عيني ، وكان يتمثل لي انها تبتسم ابتسامة الملائكة ثم غنت

. . . . .

ايتها الموسيقي ، انك لبنت الاسى ، ولغة جاء بها الحجى ، لتترجم عن الهوى ، اوحت بها السماء الى ايطاليا ، ومنها جاءت الينا بالمعجزات الباهرات ، بل انت افصح لسان للقلب ، ينقل فكره الى التي هي اشبه بالعذراء الراجفة ، التي يعتلج في قلبها الحياء ، وتمشي تحت القناع ، دون ان تخشى العيون ،

ليت شعري من ذا الذي يعلم ما يقوله فتى مثلي يسمع تنهداتك الالهية التى تولدت من الهواء ، الذي نستنشقه ، حزينة ، كقلبه ، حلوة ، كصوته ،

اقد فاجأتها فوجدتها غارقة في دمعها ، وهذا كل ما سيعلمه الناس والباقي سر مجهول كاسرار اللجج ، والليالي ، والغابات ،

كنا لوحدنا تصرعنا التخيلات ، فنظرت الى لومي ، فكان صوتها يبدو لى مذيباً للقلوب ، ورأيتها قد نكست رأسها المضطرب فسألتها « لعل قلبك يشعر بانك كدمونه في الحظ والمصير ؟ ايتها الفتاة التاعسة الحظ ، انك لتبكين ، وقد تركت شفتى تلثم فمك المعبود فكأن قبلتي هذه ، مانزلت ، الاَّ على حزنك وجواك ، ثم عانقتك فوجدتك مثلوجة ، الحشا ، واهية ، القوى ، باهتة السنا ، واليوم وقدمضى شهران اراك ضجيعة الثرى

ايتها الزهرة الطاهرة ! ارى موتك قد تحول ابتساما عذباً كحياتك ، ثم حملت بمهدك الى الله نقية العرف طاهرة ، فما احلى سرا منك يسكنه العفاف ، واجمل ابتساماتك وحبك ، بل ياما احيلى فعالك الطاهرة ، فانها ببساطتها كفعال الاطفال

وانت ايها الحب ، ايها السر اللذيذ ، الذي احتجبت مراميه عن

العقول، و يامن لايقدر انسان ان يقي نفسه من اذاه ، بل يامن اوقف فوست متردداً علَى باب مرغريت ، قل لي كيف اصبحت ياصفاء الايام الاول ؟

ساد السكون ، من حولك ايتها الطفلة ، فوداعا لذكراك ، وسلاماً علَى يدك البيضاء التي كانت تحدث ، من المعزف ، في ليالي الصيف تلك الاغاني التي مـا برح صداها يرن في جوانب البيت ،

يا احبائي الاعزاء ، اذا ستسلمت للردى ، هلموا وازرعوا حيال
الرمس اغراس الصفصاف ، ففي قلبي هوى ، لاوراقها
الباكية ولاغصانها المرسلة الباهتة ، فما اجمل ظلها الظليل
فوق ارض سانام فيها نومي الابدي

ولم تكد الفتاة تنتهي من انشاد هذه القصيدة ، حتى رأيتها شديدة التأثر وقد بهت لونها كأنما هي تلك الفتاة الطاهرة التي وصف الشاعر موتها ثم سكن روعها وقالت لي — ان الشجون لتغالبني كلما حاولت ان اكرر تلاوة هذه القصيدة ، ثم فارقنا المدفن وسرنا في الطريق حتى اقتربنا من مدفن آخر يعلوه تمثال ضخم فاشارت الينا الفتاة بالاقتراب من ذلك الرمس ، وقالت هنا ترتاح عظام شاعر الطبيعة والامواج

الفونس دى لامارتين [1] وهو لدينا كالفريد موسه في النبوغ والعبقرية ثم سردت لنا شيئاً عنه وقالت لعلك تسمع الان من فمي قصيدته الشهيرة التي عنوانها العزلة قلت قولي ايتها العذراء ماتشائين

L'isolement

العزلة

كثيراً ما كنت اتفيأ في الجبل ظل شجرة من الحور ، والحزن يستولي عَلَى قلبي ، فكنت في تلك الاحايين اجيل البصر في الوهاد والسهول ، التي بسطت امامي اجمل مظاهرها وانبتت اوراقهـا ، واغرامها ، وقد رنقت الشمس للغروب ، مكتسية جلبابها المصفر وعَلى رأسها اكاليل السكآبة مضفورة ،فلا ادري اذا كان ماحاق بها توجعاً لي ام رحمة بي ام ان ذلك لألم الفراق والجوى ، امامي النهر تزخر امواجه المذبدة ، تفيض امواهه ، بين احشاء الزنابق والرياحين ،وهناك البحيرة يتألق فيها الماء كالمرأة الصافية، وقدارتسم

(١) الفونس دي لامارتين = شاعر من طبقة الفريد دي موسه واندره شينسه ولد في ماسون سنة ١٧٩٠ ومات في دار بياسى في ضواحي باريس سنة ١٨٦٩ وكان كثير التكلف في رواياته لايعرف لها فيها مذهب

كوكب المساء فوق صفحات الماء والجبال التي تحيط بي تكللها احراج قاتمة رمى عليها الشفق آخر شعاع منه

لم تك هذه المشاهد الحلوة الساحرة لتلذ لي او توحي اليّ بما يزيل انقباض روحي ، وكنت ارى الارض كظل متنقل كما كنت ارى شمس الاحياء لاتدفيء الاموات ، وكنت اجيل النظر من هضبة الى اخرى ، ومن الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب فكان الامل الذي اعلل نفسي به بعيداً عني وظل ما بي من وحشة وانقباض ، ماذا تفيدني هذه الاغوار والانجاد ، والقصور والاكواخ التي لا اجد فيها حلمي المفقود ، وهذه الانهار والصخور ، والغابات ، التي لا تعزيني مع اخلادي الى الوحدة بل ان الدنيا باسرها لتبدو لي مقفرة خلاء اذا غاب عن عيني عزيز اتصوره

ماذا عساني اجني من شمس تتبعها عيني في مسيرها من الشرق الى الغرب ، جارية في سماء صافية او معتمة ، وانا لا انتظر شيئاً من الايام

ولو اني كنت مستطيعاً ان اتبع سيرها لكنت اطل عَلَى الجوو الوهاد ولكني لا ارغب في شيء من جميع ماتنيره ، واست لاطلب شيئا من هذه الكائنات ،

ولكن قد يمكن ان يكون وراء هذا العالم عالم آخر تنيره شمس ثانية او تظلله سماء اخرى

وحينذاك يتسنى لي ان اترك جثماني واصعد بجسمي الى اعالي السماء فهنالك ارى جميع احلامي كائنة مصورة وهناك استقي من هذا المنبع الصافي ، الذي اطلب العثور عليه ، واجدما اتوخاه من الامل والحب وذلك ماتريده الانفس ، عَلَى ان ذلك ليس له اسم في الدنيا ، فلا يجمل بي اذاً ان ابقى في هذه الدار دار النفي ، اذ لا رابطة تربطني بها مثلي كمثل الورق الذابل يتناثر من الغابات ويسقط في قلب المروج ثم تحمله الرياح الى الوديان فاحملينيايتها الرياح العاصفة ! . . . .

وكنت شديد التأثر من معاني هذه القصيدة وادركت في تلك البرهة بان هذا الشاعر قد انسحق تحت تأثيرات مختلفة فحاولت ان استطلع من الفتاة دفائن اسراره فلم اقو وآثرت الصمت لان الوقت لم يكن فسيحاً لدينا وقفلنا في النهاية الى الدار التى اعدها لنا الحاكم

وفي صباح اليوم التالي اعلن لي الاشباح عزمهم عَلى السير بي الى « البانتيون » وهو مدفن العظماء في فرنسا فاشعرت بان جلال المكان الذي لم ادخله بعد قد بعث الخشوع في اعضائي وبقيت اكثر من نصف ساعة وانا افكر بالتأثير الذي قد يلحق بي عند اشرافي عَلى ذلك المدفن الهائل

الفصل الحادي عشر

حارس القبور

دخلنا البانيتون ! وكانت اشجار هذا المدفن معراة من اوراقها والليل في اقصى ظلامه ، وقلب السماء كقطعة الثوب الاسود ، فترآءت لنا الهيا كل العظيمة موحشة قفراء تبث الرعب في القلوب فاخذنا نسير بينها وفي مقدمتنا احد الاشباح ، يحمل بيده مصباحاً ضعيف الاشراق وكان الحاكم قد منع فتاته من الطواف معنا عَلَى اثر مرض خفيف اصابها فكدنا نضل السبيل بدونها وكادت زيارتنا لهذا المدفن تذهب سدى لولا اننا ابصرنا خيالاً بعيداً منزوياً في داخل تلك الساحة فلما ابصرنا هذا الخيال اسرع الينا وقال بلهجة كأنها وقع الجلاجل — لقد تبلغت امر الحاكم في هذه الساعة وعلمت بانكم تودون زيارة قبور العظماء : قال احد الاشباح : كل ما تقوله صحيح قال : انا اتبعوني فسأدلكم عَلَى ما ترغبون !

رقفونا اثر الرجل الذي يتولى حراسة هذه الارماس شرعنا نجوب ارض المدفن مدة طويلة حتى بلغنا قبراً فسيح الرحاب يعلوه تمثال نحاسي ضخم يمثل رجلاً هرماً مبيض الشعور اجتذبت صورته بصري فقلت لحارس القبور

— هل لك ان تدلني عَلَى هذا القبر ، وما اسم صاحبه ؟

فلمعت عينا الحارس وصرخ تحت سكون ذلك الليل البهيم — هذا قبر ، شاعر البائسين ، محطم تيجان العتاة ، الظالمين ، صاحب الذكر الخالد الابدي ، فيكتور هيجو [1] ،

— فيكتور هيجو ،

— نعم !

قلت — بربك قربني من قبره فان لهجتك هذه قد حببت الشاعر اليّ فقربني الحارس من القبر وكان محاطاً بباب حديدي فاعمل المفتاح في القفل فانفرج مصراع الباب ، ورأينا تحت ضوء المصباح الذي يحمله الشبح كل مظاهر هذا الشاعر الهرم

وخيل اليّ ، اني ارى في وجهه صورة العذاب ، والالتياع ، والنفي البعيد ! فقلت لا ريب في ان هذا الشاعر قد تحمل من وقر الحياة واوضارها ما يرتاع له النفوس ، فقال الحارس — ظنك في محله !

وفي تلك البرهة ابتعد الحارس عنا وبقينا لوحدنا امام القبر

---

(١) فيكتور هيجو رأس شعراء الجيل التاسع عشر ولد في بيزانسون سنة ١٨٠٢ وتوفي بباريس ١٨٨٥ احسن كتبه النثرية رواية «البائسين» والشعرية كتاب «المشاهدات»

الفصل الثاني عشر

فيكتور هيجو

وكان السكون اذ ذاك شاملا تلك النواحي وظهر القمر في السماء ضعيفا مصفراً كأنما هو دمعة حزينة ، تسيل على صفحة السماء القاتمة ، فاقترب اكبر الاشباح من الرمس ووضع يده على حجارته صارخاً بكل قواه : ايها الميت العظيم ، خروجاً من مدفنك الى وجودك الاول ، ثم سكت فاخذت انظر الى القبر نظر الحائر وانا في اقصى ذهولي وقلقي فرأيت الحجارة قد تبعثرت وتفرقت قطع الرخام ، وظهر من ورائها رأس مخلوق ثم تكامل ظهوره ورأينا امامنا انسانا بلحمه ودمه !!! ونظرت الى الاشباح وانا فاقد الحس وما عتمت ان علمت بان اسرار اللانهاية قد وضعت في يدي رفقائي فلم انبس ببنت شفة وقطع تصوراتي هذه صوت الرجل الدواي في ذلك السكون « من انتم يامن قطعتم عليَّ صمتي الابدي ووحدتي الخالية من كل اضطراب ؟ فقال له كبير الاشباح — رسل السماء هبطنا الى الارض لنعيدك الى الظهور بضع ساعات امام رجل مثلك نطوف به البلدان والاقاليم ونريه من معجزات الارض ، واسرارها ، والرجل الذي تراه امامك ينتفض انما هو رجل المعرة

وحكيمها ، الشهير بابي العلاء المعري الشاعر المشرقي الفيلسوف ! نبذه قومه في حالتي حياته ومماته فبعثناه الى الارض كما فعلنا بك ليرى كيف ان الغرباء يقدرون ادبائهم و يجعلونهم في مصاف ذوي الخلود فتصافحا الان !

وتقدمت من الشاعر و بسطت اليه يدي فصافحني مصافحة الوداد قائلا — لقد سمعت بذكرك ايام كنت حيا وكنت اقرأ عنك في الكتب التي ترجمها قومي عن قومك فما اعظم نبوغك وعبقريتك ،

و كانت كلمات الشاعر قد اجتذبتني اليه حتى لم اعد تلك الروح التي ملأت الكائنات ضجيجاً من اجل احتقار قومها لها ورأيت في تلك الكلمات القليلة الوفاً من التماثيل كأنها شيدت لي ،

فقال احد الاشباح — اياكِ نسأل يا روح هيجو الطاهرة ،ان تعيدي امام شاعر المشرق قليلاً من شعرك الجميل

ورن في ذلك السكون صوت هيجو ، فتخيلنا الاجيال الاولى قد نفضت عنها غبار الفناء وجاءت بقوادها ، ورجالها وملوكها وامرائها ونسائها واطفالها لتسمع غناء الشاعر : وانشدنا هيجو قصيدته التي عنوانها، بماذا يفتكر الفارسان في الغاب

A quoi songeaient les deux cavaliers dans la forêt

بماذا يفكر الفارسان في الحرج ؟

كان الليل شديد الظلمة ، والحرج في اقصى ارتداده ، وكان هرمن وهو الى جانبي ، يتمثل لي كالظل ، ثم اخذت خيولنا تعدو واذ نظارنا الى الجواء تراءت انا سحائب السماء الثلجية كأنها قطع الرخام وترقرقت خيالات الكواكب ، بين الافنان والاغراس كأنها اسراب الطيور النارية

وكنت ممتلأ كآبة واسى ، محلم القرى من النائبات ، واما هرمن فكان خالياً من الحجى ، وبينا نحن نقطع تلك المنزلات الخضراء التفت هرمن اليّ وقال : اني لافكر بالقبور المفتوحة ، فقلت : وانا افكر بالقبور المغلقة ، فكان ينظر الى الامام ، وانا انظر الى الوراء

وطفقت خيولنا تسرع الخطى في ذلك الغاب المورق الافنان ، والاعاصير الهابة تحمل الينا صدى الاجراس النائية ، فقال هرمن : افكر بالذين يحزنهم وجودهم ، بالذين يعيشون ، حيارى ، فقلت له : اما انا فافكر بالذين لم يكونوا ابدا ، المناهل تغني ، فما تغني المناهل ؟ والحور ينوح فعلى مَ نواح الحور ؟ والعوسج يهمس كالاخلاء الاقدمين

فقال هرمن ، ابداً لن يرقد الاحياء ، وانك في هـذه البرهة لتجد عيوناً باكية ، وعيوناً اخرى يقرحها السهد فقلت : وانك لتجد عيوناً مطبقة ، فقال هرمن : المصاب ، هو الحياة ، والموتى لا يتألمون بل انهم سعداء ، واني لاحسد حفرتهم اذ ينبت فوقها العشب المخضل وتتساقط حيالها ورق الاشجار ويحمل الليل الى تلك الارواح النائمة ، نسائمه اللينة ، وتهدي اليها السماء ، الشاعلة ، كل الانفس ، في كل القبور ، فقلت له : صه ايها المحترم هؤلاء الذين يرقدون تحت اقدامنا على الارض ، ان الموتى هم ، القلوب التي احببتها يوماً ، ايها عروسك ، المحتضرة ، ووالدك ، وامك ، فلا تحسن حفرتهم بازهارك الا فانهم يسمعون اصواتنا كما لو انهم يسمعون ذلك في حلم

ولما وقف الشاعر لدى هذا البيت عدة ثوان وانا في قلق حتى انبهت الى صوت الشاعر الذي قال « سأسمعكم الان قصيدة محزنة تتضمن حكاية بائس لعنته الارض ، وازدرته السماء فقلت قل فانشد :

Le naufragé

الغريق

وارحمتا للانسان تلعب به الاقدار لعب الاعاصير بالشجر ، ثم تنقض عليه انقضاض الذئب على فريسته ، وتمزقه شر ممزق ، ترميه السماء بنكبة دهياء ، وتبتلعه الغبراء ، بائس ، شريد ، ولد والبؤس يكتنفه وينكس رأسه ، ويضل عقله ، اذا ابرق له الالهام بقبس من نور ليهتدي به في مفاوز اياسه ادركه القضاء الغامض حتى يطفىء ذلك القبس ، ويلاشيه ،

امامك البحر فانظر الى رابية من الصخور فوقها كوخ صغير ، لصائدي السمك ، سقوفه من حطام الالواح وكسر السفين التي حطمتها الامواج المزبدة ورمت بها الى الساحل ، تحدق به المياه ، وتزخر حواليه اللجج ، مندفعة كالافعى ، كأنها تحاول ان تزلزل الصخر من مكانه لتنقض على الصائد

اخلد الصائد المسكين الى كوخه ، فعصفت الرياح ، واخذت الامواج تطفو ، فظل هذا التاعس قابعاً في مسكنه من الوجل ، عظم اصطخاب الامواه ، واتسع غضب الخضم ، وكاد يبتلع كوخه ، ابرقت السماء ، ورعدت الرعود ، وزمجرت الرياح ، واضطربت اللجج ، فحطمت في اندفاعها كوخ هذا البائس ، وما وراء هذا الفضاء المربد

القاتم ، وهذا الليل الفاحم ، سوى الدمار ،

ماذا تفكر ايها الشقي الضليل؟ افتحاول تملصاً من هذه الاعصار وانت عدوها ، ام تحاول ان تجد لنفسك ملجأ في الارض يقيك شر هذا البركان ام تسمو بك الاماني الى امتلاء الجواء وقد حالت دون ذلك الاعصار والانواء ، كيف تنال هـذا السؤل وانت تنتفض من هول ما تراه سوف تغدو مقبوراً ، منزوياً في منزلك حيث لاقوة لك على مكافحة هذه الاعصار التي لاحد لصخبها ولا انتهاء

كفاك هذا الدفاع الذي يوحي به اليك شممك ، فهو الذي جعل كوخك مدفناً لنفسك واثار عليك ثائرة السماء ، وحنق الغبراء ، فاخضع ايها الغريق لهذا القضاء القوي ، وطاطيء رأسك امام هذا الخصم الجبار ، وعفر خدك خيال هذه الشمأل الصاخبة التي تكاد تطفو فوق ملجأك ثم استسلم لهـذه الغياهب التي تطير لها القلوب شعاعاً ، فانها عاملة على محوك ، واعلم بان هذا الليل الساجي الذي ينشر فوق رأسك ملاءته السوداء سيرسل اليك كل ويل مميت ، فاخنع لهول هذه الرياح الهابة من الجواء ، دون ان تسأل خالق الكل عن السبب ، ودع الموت يتسرب باهواله الى اعضائك المثلوجة من الخوف اذ لاقوة لك ولا شأن

وتوقف هيجو برهة ثم قال ان قصائدي هي التي رفعت اسمي وكرمت شخصي ، فلم يسع امتي الاّ ان تعترف بنبوغي فانشأت الشوارع والانصاب وحلتها بذكري ، فلما وقف الشاعر الى هذا الحد ترقرقت دمعة حزينة في عيني ووقفت شاخص البصر اليه وانا لا اقدر عَلَى الكلام فسألني عن سبب ذهولي وقلقي فقلت : يا اسفاً عليّ ، فاني كتبت ما كتبت ، ونظمت ما نظمت ولكن امتي قد دهلت عن واجبها رضلت السبيل ولم تنزع الى تقليد الامم الحية التي تكرم ادباءها وشعراءها فقال « ايماك والقنوط فانه مضر بك واعلم ان السماء لابد لها من الرأفة بك ولسوف يجنح قومك الى اعلاء شأنك ويكفرون عن خطيئات الماضي بحسنات تأتي بها ايديهم في مستقبل قريب ثم انشد ابياتاً صغيرة في اطراء نبوغي لم اتمكن الا من حفظ هذه الابيات ، :

ان اشعاري لتفر الى روضك الاريض حلوة ، رطبة ، لو كان لاشعاري جناح الطيور ، وتطير ، محلقة فوق ملجأك الباسم ، لو كان لها جناح الروح ، بل انها لتسرع امامك طاهرة ، امينة ، ليلا نهاراً ، لو كان لها جناح الحب ،

واشار الشبح بيده الى الشاعر صائحاً « عد الى مثواك فقد

انتهى ميعاد حياتك الجديدة

ولم ينبس الشاعر بكلمة وتراجع الى حفرته ثم رأينا الحجارة التي تبعثرت من قبل قد عادت فاجتمعت ومثلت ذلك القبر فكأننا لم نشهد شيئاً »

واخذ الاشباح ينظرون اليّ وقال احدهم « لقد انتهى اجل سياحتك وسنعود الآن بك الى مقرك حيث ستعيش بعض سنين ايضا

وتركنا الدفن وسرنا تحت استار الليل نطوف في الاحراج والغابات حتى وصلنا تحرم بارسيليا ومنها ركبنا البحر حتى الينبوع الى مسكني هذا

وفي ذلك الوقت شعرت بثقل الخرف قد اخذ يتسرب الى اعضائي وتقدم مني شبح هائل الجسم وقال ايها الدرّي ودع هذه الازهار ، وهذه الانهار ، والضياء الجميل لان الظلام سيطرق جفنيك ولن ترى النور . ثم وضع يده على عيني فاذاهما صارتا مطبقتين فصرخت صرخة رجفت من هولها اعماق البحار ، وجذوع الاشجار ، قائلاً « وداعاً ايها الخليج المضيء ، وداعاً ايتها السماء الزرقاء الصافية ، بل وداعاً ايها الزهر النضر الذي سرت عليه مدة طويلة »

ثم اخذت يدي تتلمس الاشباح فلم تثر على احد فعلمت بانهم قد غربوا عني وتركوني لوحدي ، هذه هي قصتي ايها الاطفال سردتها امامكم فما تقولون

الفصل الثالث عشر

فردوسي المعري

وكان الفتيان الثلاثة مأخوذين من حلاوة حديث الاعمى فلما اتم جملته الاخيرة ظهرت على وجوههم بوارق الجذل وقالوا :تعال معنا الى دارنا فسنريك ما ترغب فيه ، فهز المعري منكبيه وقال « ا، اكم حالمين ايها الاعزاء فانتم لا يمكنكم تحقيق آمالي واحلامي قالوا : سكن جأشك وعد الى صوابك واعلم باننا قادرون على تخفيف تيار آلامك وجواك ثم امسكوه بايديهم واندفعوا به الى الشاطىء وقبل ان ينزلوا به الى فلكهم سألهم قائلا — الا يمكنكم ان تذكروا لي اسمائكم واسم البلاد التي تنتمون اليها

فقال احدهم — ستعرف كل شيء ايها الشاعر الجليل ثم نزلوا به الى الفلك واخذوا يعملون التجذيف وجرت لهم ريح لينة وحداهم الموج الين حداء نحو الشاطىء المأمول

ثم نزلوا بالشاعر الى اليابسة وظهرت لهم المدينة الساحلية فاراحت مشاهدها الساحرة ابصارهم وكان اهالي المدينة قد علموا بقدوم الفتيان الثلاثة فاقبلوا اليهم زرافات ووحداناً يتساءلون عن الرجل الاعمى الذي يمشي بينهم على عكازيه

وكان الوقت وقت الشفق ، وتلك ساعة تذيب النفس شجى ورقة ، فاحس المعري بانه ذهل عن كل شيء ولم يعد يدرى لحلاوة ابتهاج الشعب به في اي عالم يعيش ،

ولما دخلوا به الى قصر صاحب المدينة انيرت الاضواء ، والمسارج وتلألأت الشموع في القاعات ، واقبل القوم يبسطون اجمل صور الخلوص للفتيان الثلاثة ويهشون لضيفهم الشيخ

وكان القصر مشيداً عَلَى ساحل وقد انبسط موج البحر من حوله واخذ يهبط ويضمحل فاحس المعري بلذة وخال اصصخاب الخضم غناء عذباً يتطرق الى سمعه

واعلن الفتيان الثلاثة في المساء نفسهُ بان المدينة ستحتفل باقامة تمثال فضي عَلَى ساحل البحر للشاعر المعري واشاروا بايديهم الى ضيفهم الشيخ فانهالت العواطف من الصدور وانحنى القوم راكعين امام المعري صائحين « لك المجد ايها النور الحقيقي الذي يلاشي ماحولنا من الحندس »

ثم انصرفوا يفكرون في اعداد الحفلة التي اشار اليها الفتيان واخذ الفتيان بعد انصرافهم في محادثة احد النقاشين في المدينة وعهدوا اليه بصنع تمثال المعري عَلَى صورة تمثله جالساً فوق صخرة ناتئة بين

الامواج المزبدة وعيناه تنظران الى الافق كأنهما تريدان الاحاطه باسراره و يده على عصاه ،

ومنذ ذلك الحين اتجهت كل قوى النقاش الى صنع التمثال حتى اتمه على المثال الذي رغب فيه الفتيان ونودى بعد ايام في كل اسواق المدينة واحيائها بان الحاكم يدعو الشعب الى الاجتماع في الحفلة التي يقيمها تكريماً لاحد الشعراء

وفي اليوم التالي برزت المدينة بحلة باهرة من الزينة واقبل الشعب امام القصر المنصوب امام الساحل وهرعت الجنود باسلحتها البارقة والحراس باثوابها الزاهرة ثم اقبلت النساء والفتيات فتألفت ابدع صورة من محاسنهن ، فكان مشهداً جمع اليه اجمل الصور ،

وكان يتراءى للناس على الساحل تمثال فضي قد اسدل عليه ستار كثيف وهو يمثل رجلا يحدق الافق ، ويمسك بيده عصاته الذهبية وعلى رأسه اكليل من ورق الزيتون ،

وبعد برهة جاء الفتيان الثلاثة في عربة يجرها عشرون من الجياد تحف بها الفتيان والفتيات ، وقد جلس بين الثلاثة شاعرنا الحري وقد البسوه ثياباً من المخمل الارجواني ، وحلوا رأسه باكليل النصون فلما ظهرت العربة وشاهده الشعب علا ضجيجه ، حتى طبق الجواء

واخذت . اء ترمي الازهار والرياحين فوق رأس الهرم حتى لم يعد يظهر للناس ، حتى صار ناديا امام اعينهم كتل من الرياحين

ونزل الفتيان من العربة ثم حملوا الشاعر وصعدوا به الى عرش ذهبي تحدق به حراب الجنود ،

وبعد قليل ساد الصمت ، وانقطع الضجيج ، ثم سمعت اصوات بعيدة تصيح « المجد لابي العلاء »

ثم رفع الستار عن التمثال فظهر بجلاله وحاله واصغى الكل فاذا بهم يسمعون صوت الذي ازاح الستار وهو يقول :

ليس لي ما اقوله امامكم سوى ان عملنا مجيد ، ومقدس معاً . ان للملك ، وللامير ، دولة الفتح ، ولكن هـذه سريعة الزوال والتدهور ، اما الشاعر فله مملكة خالدة ، هي مملكة العقل الراجح وقد نعيم الظلام على المملكة الاولى ، وظهرت اشباح اصحابها معفرة بالدم الذي سفكته وهي تعتسف في ليل اليل امـا المملكة الثانية فخالدة الى الابد ، وهذا هو احد اصحابها تروونه الان امامكم كآله من آلهة القسما وانتم تضرعون بايديكم النيران تقديساً لذكره ،

انتم يا من تبكون تعالوا الى هذا الاله لأنه يبكي [1]

(١) لفيكتور هيجو !

وانتم يا من تتألمون تعالوا اليه لأنه يشفي

وانتم يا من تضطربون تعالوا اليه لأنه يبتسم

وانتم يا من تعتسفون السبيل تعالوا اليه فهو يضمكم تحت جناحيه

ولم يكد الخطيب ينتهي من قوله حتى اخذ المعري يقول « لقد صدقت ديانا » ثم التفت الى الاطفال وقال ما هي اسماؤكم ايها الاصحاب

فقال احدهم ،

— اسمي العقل

وقال — الثاني

— اسمي الارادة

وقال الثالث

— اسمي — العمل

انتهى